تَجَلِّيَاتُ قَضِيَّةِ شَيَاطِينِ الشِعْرِ فِي النَّقْدِ العَرَبِيّ القَدِيمِ

Manifestations of the issue of the devils of poetry in the ancient Arab criticism

زهية لبيض
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي
zahiazahoo94@gmail.com

طارق زيناي
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي
tarek.zinai@univ-oeb.dz

تاريخ الارسال:2022/01/28	تاريخ التقييم:2022/12/20	تاريخ القبول:2023/06/23

الملخص :

يتناول هذا البحث بالدّراسة إشكاليّة مطروحة في النّقد العربيّ القديم، والتي ظهرت تجليّاتها في الثّقافة العربية والمتخيّل الجمعي منذ الجاهليّة، باعتبارها تجسّد العلاقة الغيبيّة بين الشعراء والشياطين، والتي تبرز رؤية العرب لحقيقة العمليّة الإبداعيّة والخلق الشعريّ، حاول الباحثان من خلالها جمع ما تفرق في المصادر العربيّة القديمة والحديثة، بحيث تتكون عدسات تصوريّة يستطيع من خلالها القارئ أن يتعرف على مفاصل هذه القضيّة كما نَظَرَ / نظَّر لها القدامى، والتركيز على إيراد الشواهد الشعريّة والتاريخيّة الواقعيّة والمتخيلة الحاضرة في مؤلفات القدامى.

كلمات مفتاحية : قضيّة؛ شياطين الشعر؛ الشعراء ؛النّقد العربي القديم.

Abstract :

This research examines a problem that arises in the old Arab criticism, which has manifested itself in the Arab culture and the collective imagination since ignorance, as it reflects the occult relationship between poets and demons, which highlights the Arab vision of the reality of the creative process and poetic creation, through which the researcher tried to collect what differentiates in ancient and modern Arab sources, so that the visual lenses through which the reader can recognize the joints of this issue as seen / the old ones, and focus on the mention of the poetic, historical, realistic and imagined evidence in the literature of the present.

Keywords : case; Demons of poetry; Poets; Criticism The old Arab.

*المؤلف المراسل:

نصُّ المقال :

تعدُّ الثّقافة العربية موئل مفارقات كثيرة، فهي وإن كانت ذات نزعة واقعية اتجاه العالم منذ الجاهلية، وطّنت نفسها على التعايش مع كل تناقضاته وعقباته، إلا أنّها في كثير من الأحيان جنحت من الواقع إلى الخيال، ومن الملموس إلا الغيبي، فالمتأمل لكتب الأدب العربي القديم يلفي لهذه الثّقافة جانبا متخيلا تشتغل من خلاله تصورات ومعتقدات وطقوس وأباطيل وخرفات وأساطير وتكاذيب، ولعلَّ من أهم ما تناولته الذّهنية العربيّة منذ الجاهليّة قضيّة شياطين الشعر، حيث كثرت في ذلك الأخبار، وتعددت الروايات المثبتة له، خاصة في ظل التفكير السطحي البسيط الذي كان لصيقا بالإنسان العربي آنذاك، ولكن يزداد الأمر غرابة عندما نجد مثل هذه الاعتقادات ما زالت بعد مجيء الإسلام، وضبط التصورات والعقائد اتجاه هذه العوالم الغيبيّة، من هذا المنطلق ستحاول هذه الدراسة التطرق لهذه القضيّة، وذلك بالبحث في مفهومها وحقيقتها وتقصِّي أبعادها الدينية والأدبية والنقدية .

ويهدف الباحثان من خلال هذه الدراسة إلى إقامة تصورات واضحة حول قضية نقدية دندن حولها القدماء كثيرا، فظهرت لهم فيها شواهد كثيرة، وتعليقات متنوعة، ونصوص تصلح بجموعها أن تكون إطارا نقديا ودينيا وفلسفيا، يفتح المجال لدراستها، ولَمِّ ما تشتت منها.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها ستحاول أن تستقصي القول في هذه القضية/ التصور / الفكرة التي ظهرت مع الجاهليين واستمر ظهورها في الأعصر الإسلامية المتتابعة، والتي تنبئ عن حقيقة المتخيل العربي إزاء العوالم الماورائية.

والذي يهمنا من كل هذا هو فكرة شياطين الشعر، ولهذا نتساءل ما حقيقة هذه الفكرة عند العرب؟ وهل لها علاقة بمفاهيم موازية كربَّات الشعر عند اليونان ؟ وكيف تجلت في الشعر العربي ونقده؟

وقبل التطرق لقضية مفهوم شياطين الشعر وتجليات هذه الفكرة عند القدامى، منذ العصر الجاهلي لابد من الإشارة إلى نصِّ القلقشندي الذي يعدُّ أجمع ما وصلنا من

القدامى عن المتخيل العربي القديم، والذي اشتهر تسميته عندهم بـ " الأوابد "[1] والذي يقول فيه : « هي أمور كانت العرب عليها في الجاهليّة، بعضها يجري مجرى الدّيانات، وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها »[2]

من النص السابق يتبين لنا أن هذه الأوابد في مجملها ترجع إلى تصورات أو سلوكات خاطئة من منظور الدين الإسلامي؛ لأن أكثرها له علاقة بالشرك أو بما يؤدي إليه، وإن كان معظم هذه الأوابد ترجع أصولها إلى الجاهليّة كالكهانة والزّجر والطيرة والميسر والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وإغلاق الظهر[3] ، والتفقئة (فقأ عين الفحل إذا بلغت إبل الرجل ألفا)، والتعمية (فقأ العين الثانية للفحل إذا بلغت الإبل أكثر من ألف)، ومنها نكاح المقت (نكاح زوجة الأب)، ومنها الهامة والغول والسعلاة، ومنها ضرب الثور ليشرب البقر، ومنها تعليق سنّ الثعلب والهرة على الصبي تحصينا له من العين...

مَفْهُومُ شَيْطَانِ الشِّعْرِ :

قبل أن نتناول بعض القضايا المتعلقة بشياطين الشعر لابد من الاتفاق أولا على وجود عالم غيبيّ فيه هذه المخلوقات النّارية المتمثلة في الجنّ والشياطين، وهذا محل إجماع المسلمين، بل وعند الكثير من غيرهم كذلك.

الشيطان في اللغة يطلق على الجن والإنس والدواب، يقول ابن منظور عنه[4]: « كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ والإنس وَالدَّوَابِّ شَيْطَانٌ؛ قَالَ جَرِيرٌ:

أَيَّـــــامَ يَـــــدْعُونَني الشَّـــــيْطَانَ مِـــــنْ غَـــــزَلِ

وهُـــــنَّ يَهْـــــوَيْنَني، إِذْ كُنْـــــتُ شَـــــيْطَاناً

وورد معناه كذلك في جمهرة اللغة « الشَّطَن: الْحَبل، وَالْجمع أشطان. وَرجل شاطن، إِذا كَانَ خبيثاً، زَعَمُوا وَمِنْه اشتقاق الشَّيْطَان. فَأَما قَوْلهم: شَطَنَ عنَّا، فِي معنى بعُدَ، فَصَحِيحٌ. وشَطَنَتِ الدارُ شُطوناً، إِذا بعُدت. وَنوى شَطونٌ، أَي بعيدَة. وَاخْتلفُوا فِي اشتقاق الشَّيْطَان، فَقَالَ قوم من أهل اللُّغَة: اشتقاقه من شاط يَشيط وتشيّط، إِذا لفحته النارُ فأثّرت فِيهِ، وَالنُّون فِيهِ زَائِدَة (...) وَمن قَالَ إِن النُّون فِيهِ أَصْلِيَّة فَهُوَ من شَطَنَ فَهُوَ شاطن، أَي بعُد عَن الْخَيْر »[5]

ويقول أبو البقاء الكفوي مبينا حققية الشيطان : « هُوَ إِمَّا من (شاط) بِمَعْنى (هلك) أَو من (شطن) بِمَعْنى (بعد)، وَهُوَ المحرق فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة والعصي الآبيّ الممتلئ شرا ومكرا، أَو المتمادي فِي الطغيان الممتد إِلَى الْعِصْيَان » [6]

من التحديدات السابقة يتبين لنا أنَّ الشيطان في اللغة يحمل معنى الخبث والبعد والعتو والتمرد والشرّ والعصيان والطغيان.

هل الشعرية عبقرية أو إبداع ؟ :

من خلال التحديد المقتضب السابق لمفهوم الشيطان لابد من الاتفاق على أن الشعر هو ملكة وموهبة يؤتاها بعض الناس، ولا يؤتاها البعض الآخر، فليس كل الناس خلقوا كي يكونوا شعراء، وهو بهذا المعنى نوع من الفيض والإلهام والإدراك الذي لا إرادة للشاعر فيه، فهو متى فاضت نفسه بالإحساس والوجدان انعكس ذلك على لسانه وقلمه، فكأن الشاعر في مرحلة قول الشعر يعيش مخاضا متعسرا تشترك فيه جميع الملكات العاطفيّة والنفسيّة والفكريّة واللّغويّة، وتغذيه عوامل بيئيّة وثقافيّة، إذا اقتصرنا على هذا المفهوم العلمي لهذه الظاهرة، فلاشك أننا سنلغي فكرة شيطان الشعر من أساسه، ولهذا فمفهوم شيطان الشعر لا يعدو أن يكون تصورا أو قل ادّعاءً بأنّ هناك من الجنّ والشياطين والعفاريت من هو موكّل إليه أن يكون قرينا لبعض الشعراء، بحيث يلقون بالشعر على ألسنتهم، في تفاعل روحاني بين الشعر والشيطان في إنتاج كلامٍ مبدؤه من الشيطان ومنتهاه إلى صاحبه من الإنس، وهذا كما هو ملاحظ تفسير ما ورائي لعملية الإبداع الشعري، ليس كما هو معروف عند العرب أو غيرهم كما أشرنا سابقا، يقول الثّعالبي مقررا هذا المعنى : « وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقى على أفواهها الشعر وتلقّنها إيّاه وتعينها عليه وتدّعي أن لكل فحل منهم شيطانا يقول الشعر على لسانه فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود » [7]

ولكن هنا اعتراض مقبول، فلو قال قائل : إن الاستعداد الفطري لقول الشعر عند أصحابه، وحضور ملكة القول والموهبة عندهم، لا يعارض أن منهم من له شيطانٌ يؤازره ويقول على لسانه الشعر !!

وللإجابة عن هذا الطرح لابد من التأكيد على أن الغالب على الشياطين أنهم لا يلقنون الشعر ويلقونه على الأفواه والألسنة إلا لمن عنده هذه الملكة ابتداءً، وليس كل من له موهبة يستدعي ذلك نزول شيطان الشعر عنده، فأكثر الشعراء الفحول، بل وبعض

أصحاب المعلقات كالحارث بن حلزة ولبيد بن ربيعة العامري، بل وحتى الشاعرات كالخنساء، التي تعدُّ قصائدها في الرثاء من غرر الشعر العربي، لم يحفظ أو يذكر أن لهم شياطينا.

إذن فخلاصة القول : إننا إذا سلمنا بوجود شياطين وأنهم يوحون بالشعر إلى هؤلاء الشعراء بما يلقونه في روعهم أو يسمعونه في آذانهم، أو يجرونه على ألسنتهم، فهؤلاء الشعراء يشترط أن يكون لهم الاستعداد الفطري لقول الشعر، وأن أي قصة رويت عمن لم يعلم أن له هذه الموهبة، وتلقى الشعر عن الشياطين فهي روايات موضوعة وباطلة لا أساس لها من الصحة كقصة عبيد بن الأبرص التي سنشير إليها لاحقا في وقتها.

وهنا نقطة أخرى ذات صلة بما سبق، وهي هل يشترط في شيطان الشعر كذلك أن يكون شاعرا بالفطرة شأنه شأن الإنسيّ؟ ولعلَّ الإجابة عن هذا التساؤل واستحضار قياس الجنّ بالإنس في امتلاكهما موهبة قول الشعر، هو قياس مع الفارق - كما يقال - وهذا لاختلاف طبيعة الجن والإنس ومقدرتهما لا في الشعر فقط ولكن في الأمور كلها، وما قصّة عرش بلقيس وعفريت سليمان، الذي قال : ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ [النمل : 39] عنَّا ببعيد، ومع هذا يرى عبد الرزاق حميدة وجوب امتلاك الشيطان أو الجني لموهبة قول الشعر حتى يصير مؤهلا لأنّ يلهم الشعراء بقول الشعر، يقول في هذا : « ولابد لهؤلاء الشياطين أن يكونوا شعراء، وأن يرووا من الشعر أحسنه، وأن يحكموا فيه، فهم عند العرب شعراء رواة ناقدون : تصورهم العرب في صورة الناس، وجعلوهم قبائل، وسموهم بأسماء، وورثوهم الشعر عن آبائهم من الجنّ » [(8)]

صور الشيطان وفضاءات حضوره عند العرب :

إنَّ سبب تصوّر أن للشعر شياطين في المتخيل العربي منذ الجاهلية يرجع للعلاقة الغريبة بين الإنسان والجنّ، هذا الأخير الذي يشكل عالما غريبا مطلسما، ولهذا فالإنسان

يتوجّس خيفة من كل ما له ارتباط به، بل إنّه بنى لنفسه تصورات كثيرة عنه، فيما يخصّ صورها، فادّعوا أنّها في الغالب تأخذ أشكالا حيوانيّة أو إنسانيّة أو مركبة كما الشأن مع الغول (جسم امرأة ورجلا حمارٍ)، أو مسوخا، يقول عبد الرزاق حميدة : « ويظهر أن الصورة الصحيحة للجنّ تكون دائما صورة من الحيوان الأدنى، أو تركيبا شيطانيّا في صورة حيوانيّة ... أمّا الاتجاه إلى تصوير المخلوقات التي تستطيع أن تعقل أو تتكلم في صورة إنسانيّة، فهو اتجاه حتميٌّ عندما يتجاوز النّاس دور البداوة » [9]

أو فيما يخصُّ أماكن تواجدها، وهي في الغالب فضاءات رعب وخوفٍ، وأنها بعيدة لا تطؤها الأقدام، في مفاوز الصحراء وبطون الأوديّة ومنابع المياه وملتف الغابات، ومما ذكر عند العرب من بلاد الجنّ والغيلان وادي عبقر ووبار، فالأول: قيل إنه قرية في اليمن كانت توشَّى فيها الثياب، ويرى ياقوت الحموي أنَّ "عبقر" تطلق على موضعين : أحدهما في اليمن والآخر في اليمامة [10]

أما وَبَار فقد ذكرها الجاحظ مشككا فيما ترويه العرب عنها، يقول : « وتزعم الأعراب أن الله عزّ ذكره حين أهلك الأمّة التي كانت تسمى وبار، كما أهلك طسما، وجديسا، وأميما، وجاسما، وعملاقا، وثمودا وعادا- أن الجنّ سكنت في منازلها وحمتها من كل من أرادها، وأنّها أخصب بلاد الله، وأكثرها شجرا، وأطيبها ثمرا، وأكثرها حبّا وعنبا، وأكثرها نخلا وموزا، فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد، متعمدا، أو غالطا، حثّوا في وجهه التراب، فإن أبى الرجوع خبلوه، وربما قتلوه » [11] ومما ذُكر كذلك : زَرُود ووادي الأرواح، حيث تزعم العرب أنَّ لافظ بن لاحظ شيطان امرئ القيس، وهَبِيد بن الصَّلادم شيطان عبيد بن الأبرص الأسدي، وعنتر بن العجلان شيطان طرفة بن العبد، وهادر شيطان النابغة الذبياني، وأبا الخطار شيطان قيس بن الخطيم، ومُدرِك بن واغم شيطان الكميت بن زيد يسكنون في رمال زَرُود، وأما من يسكنون وادي الأوراح فهم : حسين الدَّنَّان شيطان أبي نواس، وعتَّاب بن حبناء شيطان أبي تمام، وأبو الطبع شيطان البحتري، وحارثة بن المُغَلِّس شيطان المتنبي .

وهنا لابد من استحضار ما روته كتب الأدب حول القصص التي حدثت للشعراء مع الجنّ والغيلان والسعالي؛ التي يسميها العرب التّكاذيب والأباطيل والخرافات، والتي تؤسس لنا تجذر فكرة التواصل بين الإنس والجن في الجاهليّة والإسلام [12]، ويظهر ذلك بوضوح في

الحوادث الكبرى، وورود هواتف الجنّ شعرا بها، ولعلَّ أهم هذه الحوادث هو التنبؤ بقرب مبعثه صلى الله عليه وسلم،

ومن ذلك أيضا ما رُوي عن شعراء الجاهلية الذين التقوا الجنّ وكلموهم وقالوا في ذلك شعرا، من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من أن تأبط شرًّا التقى السعلاة أو الغول (يقال إنهما من سباع الجنّ) في بعض المضارب فقاتلها قتالا شديدا وصرعها وهو لا يعرفها.

ومن ذلك أيضا ما رواه الجاحظ أن أحدهم خاطب الجنّ بقوله [13] :

أَتَـــــوْا نَـــــارِي فَقُلْـــــتُ مَنُـــــونُ أَنْـــــتُمْ
فَقَـــــالُوا الجَـــــنَّ قُلْـــــتُ : عَمُـــــوا ظَلَامَـــــا
فَقُلْـــــتُ إلـــــى الطَّعَـــــامِ فَقَـــــالَ مِـــــنْهُمْ
زَعِـــــيمٌ نَحْسُـــــدُ الإِنْـــــسَ الطَّعَامَـــــا

وممَّا يزيد في الارتباط بين العرب والجنّ، أنَّ هذا الأخير كانوا يعتقدون فيه أنّه قرين ونجيُّ الكهان، وكانوا يسمونه : " الرئيُّ أو التابع "، ومن هنا جاءت فكرة الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم الشعر الرَّاقي والمحكم موازاة مع الجنّ الذين يستعين بهم الكاهن في كهانته.

تَجَلِّيَاتُ شَيَاطِينِ الشعرِ فِي الثّقافة العَرَبِيَّةِ :

لعلّ حضور فكرة الجنّ أو الشياطين وما في معناهما لها علاقة بما شاع عند الأمم الأخرى، من أساطير المخلوقات الماورائية والروحانيات الخفية، وما قد يُنسب إليها « من قدرة فوق قدرة الناس، وجلب الخير أو الضرّ إليهم، والقيام بخدمتهم، ومن انقسامها إلى ملائكة أو جنٍّ خيرة، وإلى شياطين أو أرواح شريرة، وسيطرتها على قوى الطبيعة، كالرياح والبحار، وقدرتها على التشكُّل بأشكال خاصة، وأنها قد تجتلب أو تُدْفَعُ ببعض العزائم والرُقى... »[14]

إن فكرة " شياطين الشعر " بالنسبة للعرب هي مقابل موازٍ لربات الشعر عند اليونان، يتفقان في الوظيفة، ويختلفان في الماهية الخرافية أو الأسطورية عند كل منهما، وهذا يرجع لتشابه الحالين بين العرب في عصرهم الأسطوري أو قل الخرافي (في الجاهليتين الأولى والثانية) واليونان قبيل عصر التفوق العقلي والفلسفي من حيث وثنية التفكير وسطحيته، ومحاولة نسبة حدوث بعض هذه الأمور كالموت والخلود والخيّر والشّر ومظاهر الطبيعة

المختلفة إلى مصادر غيبية مرتبطة بآلهة متخيلة كما عند اليونان والرومان والهنود وغيرهم، أو إلى مخلوقات روحانية مثل الجنّ والشياطين عند العرب، هو ما جعلهم يشتركون في مثل هذه التصورات والاعتقادات؛ فإذا كان عند اليونان أبولو وأفروديت وبوسايدون وآريس وديونيسيوس، فإن للعرب آلهة كذلك جنًّا وملائكة وشياطين وهواتف، وكانت ترى فيها النّفع والضرّ والتصرُّف في الأكوان، يقول مصطفى صادق الرافعي مقررا هذه القضية : « وقد درج شعراء الأمم على استعانة القوى الغيبية من قديم؛ لأن البيان وحي؛ ولأن الشعر يكاد يكون تفاعلًا روحيا من امتزاج روح الشاعر بروح أخرى، إذ هو كالحالة الطارئة على النفس, تشعر بها وقتًا دون وقت، وفي موضع دون موضع؛ فكان شعراء اليونان والرومان يستدعون في أوائل منظوماتهم "**Les Muses**" وقد اصطلحوا على تسميتها بآلهة الشعراء أو عرائسه أو ربات الأغاني » [15]

وهذه الفكرة نجدها جليّة عند أفلاطون في محاورة إيون عندما يجعل الشعر إلهاما ووحيا، يقول في ذلك : « إن موهبتك للتكلم بامتياز عن هوميروس ليست فنا، لكنّها كما كنت قائلا لتوّي : إلهامٌ، توجد آلهة تحركك مثل تلك المحتواة كما قالت تلك منذ لحظة , لكنّها تأتيك من قوّة إلهيّة تحركك مثل تلك المحتواة في الحجر التي يدعوها يوريبيديس مغناطيسا، والذي يعرف بحجر هيرقليطس بشكل عام، إن هذا الحجر لا يجذب الحلقات الحديدية فقط, بل يضفي عليها قوة مماثلة لجذب الحلقات الأخرى أيضا, ويمكنك أن ترى بعض المرات عددا من القطع والحلقات الحديدية متدلية بعضها من بعض لتشكل سلسلة طويلة تماما؛ وتستمد كلها قوة تدلّيها من الحجر الأصلي، وبشكل مماثل فإن إحدى آلهات الشعر ألهمت الرجال قبل كل شيء؛ وتتدلى من هؤلاء الأشخاص الملهمين سلسلة من الأشخاص الآخرين الذين يتلقَّون الوحي، إن كل الشعراء الصالحين، الشعراء الملحميون كما الشعراء الغنائيون، لا يؤلفون قصائدهم الجميلة بالفن، إلا لأنهم ملهمون وممسوسون » [16]

ويضيف قائلا : « إنهم ملهمون بكل بساطة ليتكلموا ذلك الذي تحملهم على التكلُّم به إلهة الشعر، وذلك فقط » [17]

وهذا المعنى المذكور في الثّقافة اليونانية نجده في الثّقافة العربية تماما، الاختلاف فقط في التسميّة هؤلاء يقولون ربَّة الشعر، والعرب يقولون شيطان الشعر، والغريب أن هذا

الاعتقاد ساد في الجاهليّة، وهو أمر طبيعيٌّ بالنسبة للإنسان في تلك الحقبة البعيد عن التفكير المنطقي السّوي، والمعرفة الدّينيّة الصحيحة، أمّا أن يستمرَّ هذا الاعتقاد في العصور الإسلامية اللاّحقة، فهذا ما يحتاج منّا وقفة، خاصة وأنّ منهم ادّعى ذلك لنفسه ولغيره، وذكروا لشياطينهم أسماءً ونسبوا لهم قبائل، بل إن هذه الفكرة قد استلهمها الكتّاب في مؤلفاتهم كأبي العلاء المعري في: "رسالة الغفران"، وابن شهيد في " التوابع والزوابع ".

أما التحقيق في هذه المسألة فلا شك أنّها جائزة الوقوع عقلا وشرعا - كما سبق القول - لوجود الجنّ حقيقة ولاتصاله في كثير من الأحيان بالأنس، بوجه شرعي كالرقيّة أو بوجه شركيّ كالسّحر والكهانة وغير ذلك، إلا أنّ مبالغات العرب فيها أخرجها في كثير من الأحيان إلى التزيُّد والكذب، والجاحظ في هذه القضيّة نجده متحفظا عما يرويه منها، من ذلك قوله لما أورد البيتين السابقين : ((**أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ**...)) : « وللنّاس في هذا الضرب ضروب من الدّعوى، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها، كالذي يدعون من أولاد السعالي من النّاس (...) ولم أعب الرواية، وإنما عبت الإيمان بها، والتوكيد لمعانيها. فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرّواية له سببا لتعريف النّاس حق ذلك من باطله » [18]

فكأنّ الجاحظ هنا ينكر وجود أمثال هذه الأوابد، ويعيب على من يصدق بها، وهو يشير إلى فئة من العلماء كانت مولعة برواية هذه الأخبار والروايات، وبالأخصّ القصاص والمؤرخين وأصحاب السير، وهذا الكلام يجرنا إلى جانب نفسيّ تنبه له الجاحظ، وذلك في قوله مفسرا عزيف الجنان وتغول الغيلان : « أصل هذا الأمر وابتداؤه، أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنّس استوحش. ولا سيّما مع قلة الأشغال والمذاكرين، والوحدة لا تقطع أيّامهم إلا بالمنى أو بالتّفكير. والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة (...) وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتفضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل » [19]

فالنّص السابق يرجع تكون فكرة الأوابد والاتصال بالعوالم الغيبيّة لدى العرب - خاصة في الجاهليّة – إلى التوحش في مضارب الصحراء، بعيدا عن النّاس، فإذا طال الأمر بالإنسان وحده تغيّرت مدركاته، ودخل تفكيره بعض الاضطراب، ولهذا يُخيل له رؤية أو سماع شيء على خلاف ما هي عليه في الواقع، وقد انعكس هذا الجانب النفسي في الحياة الاجتماعيّة العادية إلى الجانب الشعري، يقول الجاحظ رابطا بين كلا الأمرين : « ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيمانا. ونشأ عليه الناشئ، وربي به الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي، وتشتمل عليه الغيظان في الليالي الحنادس- فعند أول وحشة وفزعة، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى، وقد رأى كل باطل، وتوهم كل زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذابا نفاجا، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان! وكلمت السعلاة! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجتها !! قال عبيد بن أيوب:

فَلِلَّـــهِ دَرُّ الغُـــولِ أَيُّ رَفِيقَـــةٍ لِصَـــاحِبِ قَفْـــرٍ خَـــائِفٍ مُتَقَتِّـــرِ

وقال:

أَهَـــــذَا خَلِيـــــلُ الغُـــــولِ وَالـــــذِّئْبِ وَالَّـــــذِي

يَهِـــــيمُ بِرَبَّـــــاتِ الحِجَـــــالِ الهَرَاكِـــــلِ

وقال [20] :

أَخُـــــو قَفَـــــرَاتٍ حَـــــالَفَ الجِـــــنَّ وَانْتَفَـــــى

مِـــــنَ الإِنْـــــسِ حَتَّـــــى قَـــــدْ تَقَضَّـــــتْ وَسَـــــائِلُهْ

لَـــــهُ نَسَـــــبُ الإِنْســـــيِّ يُعْـــــرَفُ نَجْلُـــــهُ

وَلِلْجِـــــنِّ مِنْـــــهُ خَلْقُـــــهُ وَشَـــــمَائِلُهْ

ويضيف الجاحظ أسبابا أخرى جعلتهم يندمجون في هذا المتخيل أكثر فأكثر، ويأخذونه مأخذ المسلمات « أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم، وإلا عاميّا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق، أو الشّك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط. وإما أن يلقوا راوية شعر، أو صاحب خبر، فالرّاوية كلّما كان الأعرابيّ أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك

حديثه أكثر فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول، أو قتلها، أو مرافقتها، أو تزويجها؛ وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمرا. فكان يطاعمه ويؤاكله »[21]

ومما يُذكر في هذا الباب قبيلة بني زوبعة الجنيّ؛ الذين منهم شِنِقْنَاق وشَيْصَبَان، وهما رئيسان من آباء القبائل، وقد ذكر أحدَهما حسّانُ بن ثابت بقوله [22] :

إذَا مَـــا تَرَعْـــرَعَ فِينَـــا الغُـــلَامُ فَلَـــيْسَ يُقَـــالُ لَـــهُ مَـــنْ هُـــوَهْ
إذَا لَـــمْ يَسُـــدْ قَبْـــلَ شَـــدِّ الإِزَارِ فَـــذَلِكَ فِينَـــا الَّـــذِي لَا هُـــوَهْ
وَلِـــي صَـــاحِبٌ مِـــنْ بَنِـــي نِ فَطَـــوْرَاً أَقُـــولُ وَطَـــوْرَاً هُـــوَهْ
الشَّيْصَـــــــــــــــــــــبَا

يقول الجاحظ في سياق شرحه بيت البَهْراني الذي يقول فيه :

بِنْـــــتُ عَمْـــــرٍو وَخَالِهَـــــا مِسْـــــحَلٍ الخَـــــيْ
رِوَخَـــــــالِي هُمَـــــــيْمٌ صَـــــــاحِبُ عَمْـــــــرِو

« فإنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر، فزعم البهراني أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المخبل، وأن خالها مسحل شيطان الأعشى، وذكر أن خاله هُمِيمٌ، وهو همام، وهمام هو الفرزدق، وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم، وأما قوله: « صاحب عمرو » فكذلك أيضا يقال : إن اسم شيطان الفرزدق عمرو » [23]

فالجاحظ ينسب للعرب زعمهم أن للفحول شياطين، يقولون على أفواههم الشعر، وقد ذكر هؤلاء الشعراء وأسماء شياطينهم، وذكر بعد قوله السابق مجموعة من الأبيات التي يثبت فيها أصحابها فكرة شيطان الشعر، وتزعم العرب أن أعتى شعراء الهند يسمى :" تنكوير "، وأعتى شعراء الشام يسمى: " دركاذاب "، أما أسماء شياطين فحول الشعراء ومشاهيرهم الذين روتها كتب الأدب، فلافظ بن لاحظ قرين امريء القيس، وهبيد بن الصلادم قرين عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم الأسدي، وهاذر بن ماهر قرين النابغة الذبياني، ومدرك بن واغم قرين الكميت بن زيد، ومسحل السكران بن جندل قرين الأعشى، وجالد بن ظل قرين عنترة بن شداد، والسفاح بن الرقراق قرين الحارث بن مضاض...

إذا كان من الإنس شعراء فكذا الجنّ منهم من يقول الشعر، وقد روت لنا كتب الأدب والسير والتّاريخ طرفا غير قليل من شعرهم، الذي في أغلبه محض تزيد ومبالغة لا أساس له من الصّحة، ولعل هذا ما حدا بهم إلى اعتقاد بأن فحولهم هم من يقولون الشعر على ألسنة فحول شعراء الأنس، ويرجع هذا الاعتقاد إلى أن العرب يرون في الجنّ التفوق والمقدرة في كل شيء، ومنه إنشاد الشعر، بل إن لفظة : " **العبقري** " التي تدل على التميز في كل مناحي الإبداع، وهي منسوبة إلى وادي عبقر الذي هو « مَوْضِعٌ تَزْعُمُ الْعَرَبُ أَنَّهُ مِنْ أَرْضِ الْجِنّ ثُمَّ نَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ تَعَجَّبُوا مِنْ حِذْقِهِ أَوْ جَوْدَةِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّتِهِ » [24] فمن أتاه من الإنس يخرج منه شاعرا مفلقا عبقريا، وقد كثرت فيه الأساطير والقصص، حتى ضرب به المثل بقولهم :" كأنَّه جِنُّ عَبْقَرٍ" .

والشواهد في ذلك كثيرة في العصر الجاهليّ، ومنها حوادث وقعت في العصور الإسلاميّة، من ذلك القصة التي رواها الإبشيهي، والتي فيها أن رجلا « اختطفت ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتي، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت نارا عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفني عفريت يقال له : ظليم وجعلني ههنا، فهو يغيب عني بالليل، ويأتيني بالنهار، فقلت لها امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فيأخذني ويقتلك، فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتي، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض، فقالت ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتي وخططت حولها خطا، وقرأت آيات من القرآن، وتعوذت بالله العظيم، فتقدم وأنشد يقول:

يَا ذَا الَّذِي لِلْجِنِ يَدْعُوهُ القَدَرْ خَلِّ عَنِ الحَسْنَاءِ ثُمْ سِرْ
وَإِنْ تَكُنْ ذَا خِبْرَةٍ فِينَا اصْطَبِرْ

قال، فأجبته :

يَا ذَا الَّذِي لِلْجِنِ يَدْعُوهُ الحُمْق خَلِّ عَنِ الحَسْنَاءِ رِسْلًا وِانْطَلِقْ
مَا أَنْتَ فِي الجِنّ بِأَوَّلَ مَنْ عَشِقْ

قال: فتبدَّى لي في صورة أسد، وجاذبني وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس مني قال:هل لك في جز ناصيتي، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من

الإبل، أو أخدمك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلّ بيني وبين الجارية، فقلت لا أبيع ديني بدنياي، ولا حاجة لي بخدمتك، فاذهب من حيث أتيت، قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءني منها أولاد » [25]

ويروي أبو زيد القرشي خبرا عجيبا مبينا مقدار شاعرية بعض الجنّ وفحولتهم، يحدّث فيه أن أحد الأعراب خرج يطلب بعيرا له، فصادف جنيًّا، وبعد حوار طويل بينهما، قال الأعرابي للجنيّ : « أتروي من أشعار العرب شيئاً؟ فقال: نعم! أروي وأقول قولاً فائقاً مبرزاً، فقلت: فأرني من قولك ما أحببت، فأنشأ يقول:

طَـــافَ الخَيَـــالُ عَلَيْنَـــا لَيلَـــةَ الـــوَادِي
مِـــنْ آلِ سَـــلْمَى وَلَـــمْ يُلمِـــمْ بميْعـــادِ
أنَّـــى اهْتَـــدَيْتَ إلـــى مَـــنْ طَـــالَ لَـــيلُهُمُ
فِـــي سَبْسَـــبٍ ذَاتِ دَكْـــدَاكٍ وَأَعْقَـــادِ
يُكَلِّفُـــونَ فَلَاهـــا كُـــلَّ يَعْمَلَـــةٍ
مِثْـــلَ المَهـــاةِ، إذَا مَـــا حَثَّهـــا الحَـــادِي
أَبلِـــغْ أبَـــا كَـــرَبٍ عَنِّـــي وَأُسْـــرَتَهُ
قَـــوْلاً سَـــيَذهَبُ غَـــوْراً بَعْـــدَ إنجـــادِ
لاَ أعرِفَنَّـــكَ بَعْـــدَ اليَـــومِ تَنـــدُبُني
وَفِـــي حَيـــاتِيَ مَـــا زَوَّدْتَنـــي زَادِي
أمَّـــا حِمامُـــكَ يَوْمـــاً أَنْـــتَ مُدرِكُـــهُ
لَا حَاضِـــرٌ مُفلِـــتٌ منـــهُ، وَلَا بَـــادِ

فلما فرغ من إنشاده قلت: لَهَذَا الشعر أشهر في معد بن عدنان من ولد الفرس الأبلق في الدهم العراب هذا لعبيد بن الأبرص الأسدي، فقال: ومن عُبِيدْ لولا هُبَيدْ! فقلت: ومن هبيد؟ فأنشأ يقول:

أنـا ابْـنُ الصَّـلادِمِ أُدْعَـى الهُبَيْـدَ ... حبَـوتُ القَـوافي قَرْمَـيْ أسَـدْ
عَبَيـــداً حَبَـــوتُ بمـــأُثُورَةٍ ... وَأَنْطَقْـتُ بِشْـراً عَلَـى غَيـرِ كَـدّ
وَلاقَـى بمُـدرِكَ رَهْـطُ الكُمَيـتِ ... مَـلاذاً عَزيـزاً ومَجْـدَاً وَجَـدّ
مَنَحْنَـاهُمُ الشـعر عـن قُـدرَةٍ ... فهَـل تَشْـكُرُ اليَـومَ هَـذَا مَعَـدّ

فقلت: أما عن نفسك فقد أخبرتني، فأخبرني عن مدرك، فقال: هو مدرك بن واغم، صاحب الكميت، وهو ابن عمي، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجنّ، ثم قال: لو أنّك أصبت من لبنٍ عندنا؟ فقلت: هات، أريد الأنس به، فذهب فأتاني بعسٍّ فيه لبن ظبي، فكرهته لزهومته فقلت: إليك، ومججت ما كان في فمي منه، فأخذه ثم قال: امض راشداً مصاحباً! فوليت منصرفاً فصاح بي من خلفي: أما إنّك لو كرعت في بطنك العُسَّ لأصبحت أشعر قومك، فندمت أن لا أكون كرعت عُسَّهُ في جوفي على ما كان من زهومته، وأنشأت أقول في طريقي[26]:

أسِـــــفْتُ عَلَـــــى عُـــــسِّ الهَبيـــــدِ وشُـــــربِهِ
لَقَـــــدْ حَرَمَتْنِيـــــهِ صُـــــرُوفُ المَقـــــادِرِ
وَلَـــــوْ أنَّنِـــــي إذْ ذَاكَ كُنْـــــتُ شَـــــرِبتُهُ
لأصْـــبَحتُ فـــي قَـــومِيْ لَهـــم خيـــرَ شَـــاعِرِ

وذكر أيضا شاهدا آخر يصدق الذي سبقه، وفيه أنَّ مظعون بن مظعون الأعرابي: لما حدثه أبوه بالخبر السّابق قال : « أحببت إذ علمت أن لشعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها، أن أعرف ذلك، ورجوت أن ألقى هاذراً أو مدركاً اللذين ذكر الهبيد لأبي، وكنت أخرج في الفيافي ليلاً ونهاراً، تعرضاً لذلك، ولم أكن ألقى راكباً إلا ذاكرته شيئاً مما أنا فيه، فلا يزال الرجل يخبرني بما استدل على ما سمعت حتى جمعت من ذلك علماً حسناً، ثم كبرت سني وضعفت ولزمت زرود، فكنت إذا ورد علي الرجل سألته عن ذلك، فوالله إني ليلةً من ذلك لبقناء خيمةٍ لي إذ ورد علي رجلٌ من أهل الشام، فسلم ثم قال: هل من مبيتٍ؟ فقلت: أنزل بالرحب والسعة! قال: فنزل، فعقل بعيره ثم أتيته بعشاءٍ فتعشينا جميعاً، ثم صف قدميه يصلي حتى ذهبت هدأةٌ من الليل، وأنا وابناي أرويهما شعر النابغة، إذ أنفتل من صلاته، ثم أقبل بوجهه إليّ فقال: ذكرتني بهذا الشعر أمراً أحدثك به، أصابني في طريقي هذا منذ ثلاث ليال، أهل الشرف القديم. ثم تحدثنا طويلاً إلى أن قلت: أتروي من أشعار العرب شيئاً؟ قال: نعم، سل عن أيّها شئت! قلت: فأنشدني للنابغة! قال: أتحب أن أنشدك من شعري أنا ؟ قلت: نعم! فاندفع ينشد لامرىء القيس والنابغة وعبيد ثم اندفع ينشد للأعشى، فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمانٍ طويلٍ. قال: للأعشى؟ قلت: نعم! قال: فأنا صاحبه، قلت: فما اسمك؟ قال: مسحلٌ السكران بن جندل، فعرفت أنه من

الجن فبت ليلةً ألله بها عليمٌ ثم قلت له: من أشعر العرب؟ قال: إرو قول لافظ بن لاحظ وهيابٍ وهبيدٍ وهاذر بن ماهر، قلت: هذه أسماء لا أعرفها. قال: أجل! أما لافظٌ فصاحب امرىء القيس، وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر، وأما هاذرٌ فصاحب زياد الذبياني، وهو الذي استنبغه. ثم أسفر لي الصبح، فمضيت وتركته » [27]

والشواهد في هذا كثيرة أوردها القرشي وغيره يضيق المقام بذكرها جميعا، وإن كانت تدخل في مجموعها في تكاذيب العرب وخرافاتهم، إلا أن الجامع بينها جميعا - تقريبا - هي أن خطاب الجنيّ للأنس يكون رجزا أو قصيدا في الغالب، حيث قلّما نجدهم يتكلمون نثرا، وهذا كي يضفوا عليه مصداقية ومقبولية عند النّاس؛ إذ من المعلوم أن الشعر أقرب للتأثير في النفوس، مثله مثل أسجاع الكهّان هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن الجنّ معلوم عليهم في المتخيل العربي أنّهم أصحاب شعر، بل هم مصدر فحولة كثير من شعراء الإنس كما سبق.

الملاحظ لمجموع ما وصلنا من شواهد جاهليّة وإسلاميّة عن تلقي الإنس الشعر عن الجنّ واستلهامهم له منهم يجد أنّها لا تخرج عن ثلاث صور، وهي :

1/ هواتف الجنّ التي رويت عنهم تخبر بميلاد شعراء فحول، وأنّه سيكون لهم شأن كبير في قومهم، وهذا شبيه بما كان ينبيء به الكهنة وقرناءهم من الجنّ عن ميلاد نبي آخر الزمان، وشاهد هذه الصورة ما رواه أبو الفرج في ملابسات مولد عمرو بن كلثوم التغلبي، يقول في هذا : « لمَّا تزوج مهلهلٌ بنت بعج بن عتبة أهديت إليه، فولدت له ليلى بنت المهلهل فقال مهلهل لامرأته هند : اقتليها، فأمرت خادماً لها أن تغيّبها عنها، فلما نام هتف به هاتف يقول:

كَـــمْ مِـــنْ فَتَـــى يُؤَمَّـــلْ ... وَسَـــــيِّدٍ شَـــــمَرْدَلْ [28]

وعُـــــــدَّةٍ لا تُجْهَـــــــلْ ... فـــي بطـــنِ بِنْـــتِ مُهَلْهِـــلْ

واستيقظ فقال: يا هند أين ابنتي ؟ فقالت: قتلتها، قال: كلاَّ وإله ربيعة، فكان أول من حلف بها، فاصدقيني. فأخبرته، فقال: أحسني غذاءها، فتزوّجها كلثوم بن مالك بن عتّاب، فلما حملت بعمرو بن كلثوم، قالت: إنه أتاني آتٍ في المنام فقال:

يَـــا لَـــكْ لَيْلَـــى مِـــنْ وَلَـــدْ ... يُقـــدِمُ إقْـــدَامَ الأسَـــــدْ

مِـــنْ جُشَـــمٍ فِيـــهِ العَـــدَدْ ... أَقُـــــولُ قِـــــيلاً لَا فَنَـــــدْ

فولدت غلاما فسمَّته عمراً. فلما أتت عليه سنةٌ قالت: أتاني ذلك الآتي في الليل أعرفه فأشار إلى الصبيّ وقال:

إنِّـــي زَعِـــيمُ لـــكِ أمَّ عَمْـــرِو بِمَاجِـــدِ الجـــدِّ كَـــرِيمَ النَّجْـــرِ
أَشْـــجَعُ مِـــنْ ذِي لِبَـــدٍ هِزَبْـــرِ وَقَّـــاصِ أقـــرانٍ شَـــدِيدِ الأَسْـــرِ
يُسُـــودُهُمْ فِـــي خَمْسَـــةٍ وَعَشْـــرِ» [29]

والشواهد في ذلك كثيرة، إلا أن القول بصحة نسبتها يطاله التشكيك، خاصة وأن هؤلاء المشاهير دائما تُحاك حول قصصهم كثير من الروايات التي لا زمام لها ولا خطام، وإن كان الأمر ممكن الوقوع في الجاهلية لكثرة استراق الجن السمع من السموات.
2/ قصص تخبر عن نبوغ بعض العرب لم يكونوا في الأصل شعراء، وإّنما أصبحوا كذلك لما تلقوه من الجنّ من موهبة وملكة، وشاهد هذا ما روي عن عبيد بن الأبرص أن رجلا من بني مالك بن ثعلبة اتهمه بإتيان أخته ماوية بقوله :

« ذَاكَ عَبِيـــدٌ قَـــدْ أَصَـــابَ مَيَّـــا يَـــا لَيْتَـــهُ أَلْقَحَهَـــا صَـــبِيًّا
فَحَمَلَـــــــتْ فَوَلَـــــــدَتْ ضَـــــــاوِيًّا

فسمعه عبيد، فساءه، فرفع يديه نحو السماء، فابتهل، فقال: اللّهم إن كان هذا ظلمني ورماني بالبُهتان فأدلني منه، ثم نام - ولم يكن قبل ذلك يقول شعرا - فأتاه آت في المنام بكبة من شعر حتى ألقاها في فيه، ثم قال له: قُم، فقام وهو يرتجز ببني مالك، وكان يقال لهم بنو الزنية فقال:

« يـــا بَنِـــي الزَّنْيَـــةِ مَـــا غَـــرَّكُمُ؟ لَكُـــمُ الوَيْـــلُ بِسِـــرْبَالٍ حَجَـــرْ

ثم اندفع في قول الشعر » [30]

وهذه الرواية التي رواها كذلك أبو الفرج في أغانيه وابن الشجري في كتابه مختار شعراء العرب، وإن كان يشتمُّ منها رائحة الوضع، يقول عنها عبد الرزاق حميدة : « وهذه أسطورة ولاشك، وما أشبهها بقصة سكيلوس اليوناني، فإنه بدأ يقول الشعر بمثل هذه الطريقة » [31] إلا أنّها تظهر لنا بجلاء كيف كان العرب يحيطون مشاهيرهم وفحولهم بوعاء قصصي مثير، وكيف أنّهم أحالوا حياتهم ملحمة أسطورية يتقاسمها الواقع والخيال، وإن كانت المنامات والهواتف زمن الجاهلية، وما بعده حتى يوم الناس هذا شيء ممكن الوقوع، والشواهد الشرعية والواقعية متضافرة على إثبات ذلك.
3/ اعتراف الشعراء باستلهامهم الشعر من الجنّ، وتلقيهم ذلك عليهم، بل وتسميتهم وذكر

شيء عنهم، وتدخل في هذه الصورة كذلك إخبار رواة وشعراء بأسماء شياطين فحول الشعراء، وهذه الصورة هي الأشهر والأوثق في نسبتها إلى أصحابها، وإن كانت فيها بعض المبالغات، وشاهدها - مع ما سبق - ما جاء عن أعشى سليم قوله [32] :

وَمَـــــا كَـــــانَ جِنِـــــيُّ الفَـــــرَزْدَقِ قُـــــدْوَةً
وَمَـــــا كَـــــانَ فِـــــيهِمْ مِثْـــــلُ فَحْـــــلِ المُخَبَّـــــلِ
وَمَـــــا فِـــــي الخَـــــوَافِي مَثْـــــلَ عَمْـــــرٍو وَشَـــــيْخِهِ
وَلَا بَعْـــــدَ عَمْـــــرٍو شَـــــاعِرٌ مِثْـــــلُ مِسْـــــحَلِ

ويقول كذلك أبو النجم العجلي [33] :

إِنِّـــــي وَكُـــــلُّ شَـــــاعِرٍ مِـــــنَ البَشَـــــرْ
شَـــــيْطَانُهُ أُنْثَـــــى وَشَـــــيْطَانِي ذَكَـــــرْ

ويقول آخر [34] :

إِنِّـــي وَإِنْ كُنْـــتُ صَـــغِيرَ السِّـــنِّ وَكَـــانَ فِـــي العَـــيْنِ نُبُـــوٌّ عَنِّـــي
فَـــــإِنَّ شَـــــيْطَانِي كَبِيـــــرُ الجِـــــنِّ

وقول جرير كذلك [35] :

إِنِّـي لَيُلْقِـي عَلَـيَّ الشـعر مُكْتَهِـلٌ مِـــنَ الشَّـــيَاطِينِ إِبْلِـــيسُ الأَبَـــالِيسِ

وهذه الصورة كما هو ملاحظ إذا استحضر فيها اتصال الشاعر بشيطان وأخذه عنه، فإنّما يأتي في سياق الفخر بالنفس، واعتبار شيطان الشاعر أقوى من شيطان غيره، « من أجل هذا كان يجنح الشعراء إلى اعتقاد أن شعرهم أحرف نارية تلقي بها الجن على ألسنتهم، وأنّهم إنّما يتناولون من الغيب، فهم فوق أن يعدوا من النّاس ودون أن يحسبوا من الجنّ؛ فإذا جاء أحدهم بالقصيدة البارعة، ورمى بالكلمة النافذة، ضرب قلبه أنّها من هناك، وأنّه إنّما يؤديها عن لسان قائلها، فيكون ذلك مدعاة إلى توكيد الثقة والاعتداد، وإلى الذهاب بالنفس ونفرة الأنف، ونحو ذلك مما هو من كبر القرائح وترفع العقول » [36]

ومما يُروى في إثبات اعتراف الشعراء بأخذهم القول عن الشياطين ما جاء عن أبي عبيدة قوله: « خرج جرير والفرزدق إِلَى هِشَام بن عبد الْملك مرتدفين على نَاقَة، فَنزل جرير يَبُول فَجعلت النَّاقة تتلفت، فضربها الفرزدق وَقَالَ:

عَـــلَامَ تَلَفَّتِـــينَ وَأَنْـــتِ تَحْتِـــي وَخَيْـــرُ النَّـــاسِ كُلَّهُـــمُ أَمَـــامِي

مَتَـى تَـــرِدِي الرُّصَـــافَةَ تَسْـــتَرِيْحِي مِـــنَ الإِنْضَـــاءِ والـــدَّبَرِ الـــدَّوَامِي

ثمَّ قَالَ: الْآن يَجِيء جرير فأنشده هذَيْن الْبَيْتَيْنِ فَيردُّ عَليَّ :

تَلَفَّـــتُ إِنَّهَـــا تَحْـــتَ ابـــنِ قَـــيْنٍ حليـــف الكِيْـــرِ وَالفَـــأْسِ الكهَـــامِ

مَتَـى تَـــرِدِ الرُّصَـــافَةَ تَخْـــزَ فِيهَـــا كَخَزْيِـــكَ فِـــي المَوَاسِـــمِ كُـــلَّ عَـــامِ

فجَاء يضْحك فَقَالَ مَا يضحكك يَا أَبَا فراس فأنشده الْبَيْتَيْنِ فَقَالَ جرير: تلفَّتُ إِنَّهَا تَحت ابْن قين كَمَا قَالَ الفرزدق سَوَاء قَالَ الفرزدق وَالله لقد قلت هذَيْن الْبَيْتَيْنِ فَقَالَ جرير: أما علمت أَن شيطاننا وَاحِد » [37]

ويعدُّ هذا الشاهد استثناءً في تاريخ شياطين الشعر؛ إذ لا نجد اشتراك الشاعرين في شيطان شعر، إلا ما ادَّعاه الفرزدق هنا وفي مواضع أخرى، من ذلك قوله : « شيطان جرير هو شيطاني إلا أنه من فهي أخبث » [38]

ولعلَّ تفسير ظاهرة التّشابه والتّطابق في إيراد الشعر بمعزل عن مقولة شياطين الشعر يرجع إلى التوارد الطبيعي الناشئ عن تشابه النفوس، وتقارب الأذواق حدَّ التّماهي، ولعلَّ علة ذلك بالنسبة لجرير والفرزدق يرجع « لوحدة أصلهما التميمي، وتشابه نشأتهما، وشدّة اتصالهما الفني بحكم التهاجي، فكان من ذلك إذا صحَّ ما يُروى أن تحضر المناسبة فيقولان فيها قولا واحدا، أو يقول الفرزدق مثلا : لو أن جريرا علم بهذا الحادث لقال كذا، ويحدث أن يعلم جرير بالحادث، فيقول نفسَ القول كأنهما ينطقان بضمير واحد » [39]

وهناك من الشعراء من يثبت له شيطانا، ولكنه يرى أن الشعر المحمود هو ما يقوله الشاعر لوحده دون معونة من قرينه، وفي هذا يقول بشار بن برد [40]:

دَعَـــــانِي شِـــــنِقْنَاقٌ إِلَـــــى خَلْـــــفِ بَكْـــــرَةٍ

فَقُلْـــــــتُ: اتْرُكَنِّـــــــي فَـــــــالتَّفَرُّدُ أَحْمَـــــــدُ

وفي المقابل هناك من الشعراء من يرجع الفضل كاملا لقرينه في إجادة قول الشعر وإتقانه، من ذلك قول الأعشى [41]:

وَمَـــــا كُنْـــــتُ شَـــــاعِرًا وَلَكِـــــنْ حَسِـــــبْتُنِي

إذَا مِسْـــــحَلٌ يُسْـــــدِي لـــــيَ القَـــــوْلَ أَعْلَـــــقُ
شَـــــريكانِ فِيمَـــــا بَيْنَنـــــا مِـــــنْ هَـــــوادَةٍ،
صَـــــفِيَّانِ إنســـــيٌّ وجِـــــنٌّ موَفَّـــــقُ
يَقُـــــولُ فَـــــلَا أَعْيَـــــا بقَـــــولٍ يَقُولُـــــهُ
كَفَـــــانِي لا عَـــــيٌّ، ولا هُـــــوَ أخْـــــرَقُ

واللافت للانتباه أن القدامى قد تنبهوا أن الجنّ في إلهمهم الشعر هم درجات، فمنهم الجيّد ومنه السيّء، فالمجيد اسمه : هوبر، والمسئ اسمه : هوجل، وشاهد ذاك ما ذكر « أن رجلاً أتى الفرزدق فقال: إنّي قلت شعراً فانظره، قال: أنشد، فقال:

وَمِـــنْهُم عمـــرٌو المَحْمُـــودُ نائِلُـــهُ كأَنَّمـــا رَأْسُـــهُ طِـــينُ الخَـــواتيمِ

قال: فضحك الفرزدق ثم قال: يا ابن أخي! إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما : الهوبر والآخر: الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره، وإنهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في أوله فأجدت، وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت » [42]

ونحن لا ندري هل قول الفرزدق هذا هو ومن جهة السخرية والتندر، أم أنه يعتقد ذلك ؟ وأنَّ هذا الأمر مشتهر بينهم، وفي كلا الحالتين يظهر ترسخ الاعتقاد بفكرة شيطان الشعر، سواء أكان مجيدا محسنا أو قاصرا مسيئا .

وكمحصلة لما سبق يمكن القول : إن فكر شياطين الشعر قد أخذت لها موطئ قدم في المتخيّل العربيّ منذ العصر الجاهليّ، واستمرَّ حضورها حتى مع الوعي الدّيني الجديد، ونضج العقلية العربيّة في العصور الإسلاميّة، وكانت تمثلاته واضحة في الشعر العربيّ، وفي كتابات النقاد العرب الأوائل، ومما توصلنا إليه في هذه الدراسة ما يلي :

- قضية شياطين الشعر إحدى أهم إبدالات المتخيل العربي التي ظهر ت في العصر الجاهلي؛ للتناسب بين هذه الفكرة وبين العقل العربي البسيط، واستمر حضورها في الوعي عندهم حتى مع مجيء الإسلام، وأخذت أبعادا أدبية ونقدية مهمة.
- لقد استقت الشعرية العربية مصدريتها من معطى شهودي معلل، مرتبط بالإبداع وامتلاك ملكة القول، ومن معطى غيبي مرتبط بشياطين الشعر.

- إن القول بأن هناك من الشياطين من يقول الشعر على أفاه شعراء الإنس يطرح أكثر من قضية مُشْكَلَةٍ تتعلق بطبيعة الشعرية الشيطانية وعلاقتها بالشعرية الإنسية.
- اتفاق فكرة شياطين الشعر عند العرب وفكرة ربات الشعر عند اليونان، بحيث إنهما يتفقان في وظيفة كل منهما، ويختلفان في الماهية الخرافية والأسطورية والرمزية لكل منهما.
- تكاثرت الشواهد عن العرب التي تتكلم عن شياطين الشعر ، باعتبارها مسلمة من المسلمات، التي استفاض ذكرها عندهم في تعلقها بفحول الشعراء في الجاهلية والإسلام.
- إن تلقي شعراء الإنس عن الشياطين لا يخرج عن ثلاث صور؛ هواتف الجنّ التي رويت عنهم تخبر بميلاد شعراء فحول، وأنّه سيكون لهم شأن كبير في قومهم، و قصص تخبر عن نبوغ بعض العرب لم يكونوا في الأصل شعراء، وإّنما أصبحوا كذلك لما تلقوه من الجنّ من موهبة وملكة، اعتراف الشعراء باستلهامهم الشعر من الجنّ، وتلقيهم ذلك عليهم، بل وتسميتهم وذكر شيء عنهم.

الهوامش والإحالات:

---

(1) الأوابد نسبة إلى الأبد وهو ما لا نهاية له، ومن معانيه عند العرب: الوحوش، وأيضا : المصائب والدواهي، وتعني أيضا: العجيب والغريب من الأشياء، وهذا المعنى الأخير له علاقة بالأوابد الموظفة هنا.

(2) القلقشندي، أبو العباس أحمد، 1922، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط01، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج01، ص 398.

(3) معنى إغلاق الظهر: أن الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلى البعير الذي كملت به مائة فأغلق ظهره بأن ينزع شيئا من فقراته ويعقر سنامه كي لا يركب، ليعلم أن إبل صاحبه قد أمأت (وصلت لمائة بعير)

(4) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، 1414هـ، لسان العرب، ط3، دار صادر، لبنان، ج 13، ص238.

(5) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، 1987، جمهرة اللغة، تح: رمزي منير بعلبكي، ط01، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج02، ص867.

(6) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، 1998، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تح : عدنان درويش، محمد المصري، ط02، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ، ص540.

(7) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد ، 2003، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص 64.

(8) حميدة عبد الرزاق ،1956 ، شياطين الشعر (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، ط01، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ص105.

[9]حميدة عبد الرزاق ، شياطين الشعر (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، ص56.

[10] يُنظر: ياقوت الحموي، 1995، معجم البلدان، ط02، دار صادر، بيروت، لبنان، ج04، ص 79 – 80.

[11] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 1965، الحيوان، تح : عبد السلام محمد هارون، ط02، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ج01، ص215.

[12] قد ذكر القرآن الكريم علاقة الجن والشياطين بالأنس، وكيف أنهم يستعيذون بهم في المخاطر، من أن يصيبهم منهم مكروه، وفيهم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [الجن : 6] وكانت العرب إذا قطعوا واديا أو فلاة وخافوا من سكانهم من السعالي والغيلان والجن رفعوا أصواتهم قائلين : « إنا عائذون بسيد هذا الوادي! فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة » الجاحظ، الحيوان،ج 06، ص 217.

[13] الجاحظ، الحيوان، ج 01، ص 185.

[14]حميدة عبد الرزاق ، شياطين الشعر(دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، ص 53.

[15] الرافعي، مصطفى صادق، 2000، تاريخ آداب العرب، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، ج03، ص 43.

[16] أفلاطون،1994، المحاورات الكاملة(محاورة إيون)، نقلها إلى العربية: شوقي داود تمراز، دط، الأهلية للنشر والتوزيع، ، بيروت، لبنان، ج03، ص19

[17] المرجع نفسه، ج03، ص20.

[18] الجاحظ، الحيوان، ج 01، ص 185- 186.

[19] المصدر نفسه، ج06، ص 249 – 250.

[20] المصدر نفسه، ج06، ص 250- 251.

[21] الجاحظ، الحيوان، ج06، ص 251- 252.

[22] المصدر نفسه، ج06، ص 231.

[23] المصدر نفسه، ج06، ص 225- 226.

[24] الرّازي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، 1999، مختار الصحاح، تح : يوسف الشيخ محمد، ط05، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت / صيدا، لبنان، ص 199.

[25] الأبشيهي، أبو الفتح ، 1419هـ، المستطرف في كل فن مستطرف، ط01، عالم الكتب، لبنان، ص 379.

[26] القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، دت، جمهرة أشعار العرب، تح : علي محمد البجادي، دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دت، ص48 – 49.

[27] المصدر نفسه، ص 49 – 50.

[28] **الشمردل** : القويُّ الفتِّي الحسن الخلق.

[29]الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين،2008 ، الأغاني، تح : إحسان عباس وآخرون، ط03، دار صادر، بيروت، لبنان، ج11، ص35- 36.

[30] الشيباني، أبو عمرو،2001، شرح المعلقات التسع، تح: عبد المجيد همو، ط01، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ص 100. 101.

[31]حميدة عبد الرزاق ، شياطين الشعر (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، ص60.

[32] الجاحظ، الحيوان،ج 01، ص227.

[33] المصدر نفسه، ج 01، ص 229.

[34] الجاحظ، الحيوان، ج 01، ص 229.

[35] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ، 1412ه، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ط01، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ج01، ص 319.

[36]الرافعي مصطفى صادق ، تاريخ آداب العرب، ج03، ص43.

[37] القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم ، 1926، الأمالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط02، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ج02، ص 235.

[38] الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 67.

[39]الشايب أحمد ،1994 ، أصول النقد الأدبي، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ص277.

[40] الجاحظ، الحيوان،ج 01، ص 228 .

[41] القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص63.

[42] الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأبشيهي، أبو الفتح ، 1419ه، المستطرف في كل فن مستطرف، ط01، عالم الكتب، لبنان،.
2. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، 1987، جمهرة اللغة، تح: رمزي منير بعلبكي، ط01، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج02.
3. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، 1414ه، لسان العرب، ط3، دار صادر، لبنان، ج 13.
4. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين،2008 ، الأغاني، تح : إحسان عباس وآخرون، ط03، دار صادر، بيروت، لبنان، ج11.
5. أفلاطون،1994، المحاورات الكاملة(محاورة إيون)، نقلها إلى العربية: شوقي داود تمراز، دط، الأهلية للنشر والتوزيع، ، بيروت، لبنان، ج03،
6. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد ، 2003، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان
7. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 1965، الحيوان، تح : عبد السلام محمد هارون، ط02، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ج01
8. حميدة عبد الرزاق ،1956 ، شياطين الشعر (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، ط01، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر،
9. الرّازي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، 1999، مختار الصحاح، تح : يوسف الشيخ محمد، ط05، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت / صيدا، لبنان،.
10. الرافعي، مصطفى صادق، 2000، تاريخ آداب العرب، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، ج03

11. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ، 1412هـ، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ط01، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ج01..
12. الشايب أحمد ،1994 ، أصول النقد الأدبي، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
13. الشيباني، أبو عمرو،2001، شرح المعلقات التسع، تح: عبد المجيد همو، ط01، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان،..
14. القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم ، 1926، الأمالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط02، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ج02،
15. القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، دت، جمهرة أشعار العرب، تح : علي محمد البجادي، دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دت،
16. القلقشندي، أبو العباس أحمد، 1922، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط01، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج01
17. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، 1998، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تح : عدنان درويش، محمد المصري، ط02، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،
18. ياقوت الحموي، 1995، معجم البلدان، ط02، دار صادر، بيروت، لبنان، ج04